فإذا هلكت هلكت

لما أرسل مردخاي إلى أستير طالباً منها أن تدخل إلى الملك وتتضرع إليه من أجل شعب اليهود تدرجت أستير في مرحلتين. مرحلة أولى كان العقل فيها هو سيد الموقف حيث وضع أمامها كل البراهين المنطقية التي تدعم حتمية الإعتفاء من الخدمة والإعتذار عن إتمام الرسالة. وكيف لا وكل أدلة العقل وبراهينه هي أدلة حقيقية واقعية تثبت حتمية الهلاك في حالة المضي في الإضطلاع بتلك المسئولية الجسيمة؟

أما المرحلة الثانية فقد اتخذت فيها أستير قراراً إيمانياً لا عقلانياً وقالت: "هكذا أدخل إلى الملك خلاف السنة. فإذا هلكت هلكت" (أس٤:١٦). لقد تجاوزت فيها كل ما هو من المنطق وعبرت إلى كل ما هو من الإيمان. والحقيقة أن هذا العبور هو مرحلة مخاض وولادة لابد أن يمر بها كل سائر على دروب الرب.

المرحلة الأولى العقلانية هي مرحلة ضرورية جداً تولد من رحمها مرحلة الإيمان؛ فكل البراهين التي يجمعها العقل على حتمية الهلاك تصير هي ذاتها برهاناً على حتمية الإيمان ودافعاً إليه. وفي قصة أستير كان العامل الجوهري الذي دفعها إلى هذا العبور هو قول مردخاي: *"لأنك إن سكتِ سكوتاً في هذا الوقت يكون الفرج والنجاة لليهود من مكان آخر وأما أنت وبيت أبيك ِ فتبيدون"* (أس٤:١٤). لقد وضعها مردخاي أمام قانون روحي لا جدال فيه قد يغيب عن كل معتفي عن الخدمة بدافع الرغبة في تجنب الألم. هذا القانون ينص على أنه عندما يقرر الشخص الخضوع لبراهين العقل لكي ينجي نفسه فإنه يقع لا محالة في الهلاك الذي يهرب منه: *"من طلب أن يخلص نفسه يهلكها ومن أهلكها يحييها"* (لو١٧:٣٣). فهوذا الشاب الغني الذي إمتنع وإعتفى محتمياً ببراهينه العقلية صار عقله هذا مصدراً لهلاكه عوضاً عن نجاته.

والإيمان في جوهره هو قبول المخاطرة والمغامرة التي يضعها العقل بحساباته أمام الإنسان. إنه الرضا بإحتمالية الهلاك: "فإذا هلكت هلكت". لعل تلك العبارة هي التي دارت داخل إبراهيم عندما قرر بالإيمان أن يخاطر و"يخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي" وعندما قرر بالإيمان أن يخاطر ويذبح اسحق، وداخل بطرس عندما قرر بالإيمان أن يخاطر وينزل من المركب ليمشي على الماء، وداخل الأنبا أنطونيوس عندما قرر بالإيمان أن يخاطر ويتبع المسيح في البراري والقفار. إنهم جميعاً، مع آخرين كثيرين، إذ حسبوا الذي وعد صادقاً صار لسان حالهم: *"وأما نحن فلسنا من الإرتداد للهلاك بل من الإيمان لإقتناء النفس"* (عب١٠:٣٩).

ما أحوج كل خادم بل وكل مسيحي سائر على دروب الرب أن يردد بإستمرار "فإذا هلكت هلكت" بحيث تصير هذه العبارة في إنسانه الداخلي موقفاً وجدانياً عميقاً من قبول مخاطرة الإيمان ولو إلى الموت لأنه: *"بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه"* (عب١١:٦)